استعادة

ما زالت الكاتبة والمناضلة النسائية السورية تنتظر من يكتب عنها بالاعتماد على المصادر وليس بالإنشاء فقط، وذلك بالعودة أولاً إلى كتاباتها المتناثرة في أرشيفات الصحف والمجلات أو بإعادة النظر في تاريخ سورية الذي يقي الكثير منه غير مكتوب ما يجعله عرضة للتزييفات المغرضة أو التبسيطات المخلّة

نازك العابد وسيرتها المنسية

خارج اهتمامات المؤرخين وصنّاع الدراما

محمد م. الأرناؤوط

في كلّ رمضان، تنهمك شركات الإنتاج منذ عدة عقود في تصوير مسلسلات تستعيد البيئة الشامية بمسميات مختلفة من «باب الحارة» إلى «حارة القبة»، وهي تتلوّن بالتعامل مع السلطات الحاكمة (العثمانية ثم الفرنسية) بتقلّب العلاقات مع تركيا الأردوغانية وفرنسا الشيراكية أو الماكرونية.

لكنّ ما هو مسيء ومُجحف عليه هو تنميط المرأة الدمشقية ضمن صورة مسطّحة لا تأخذ بعين الاعتبار تطوّرات الوضع على الأرض في السنوات الأخيرة للحكم العثماني ثم سنوات الحكومة العربية (1918-1920)، التي تمرّ كأنّها لم تكن ولم تترك أيّ أثر على الرغم مما أنجزته وما يذكّر بها إلى الآن.

تمرّ هذه المسلسلات وكأنّها لم يكن هناك إعلان لاستقلال «المملكة العربية السورية» في 8 مارس/ آذار 1920، لأنّ هذا اليوم يُغيّب تماماً لصالح 8 مارس/ آذار 1963 (وصول «البعث» إلى الحكم) أو كأنّها لم تكن هناك حركة نسائية ناشطة نجحت في جعل سورية من أوائل الدول في العالم التي تناقش في مشروع دستورها في 1920 منح المرأة الحق في الانتخاب. هذا الزخم المفاجئ في ذلك الوقت عبّرت عنه الكاتبة والناشطة النسائية نازك العابد (1887-1959)، التي لم تأخذ حقها في اهتمام المؤرخين السوريين ولا يوجد اليوم منشأة أو مؤسسة تحمل اسمها في دمشق رغم إسهاماتها المبكرة في الحياة السياسية والصحافية وصولاً إلى معركة ميسلون، ثم تابعت نشاطها في بيروت بعدما تعاون ابن عمها محمد علي العابد مع الانتداب الفرنسي (وزيراً للمالية خلال 1922 و1925 ثم رئيساً للجمهورية 1932-1936). ومن المفارقة هنا أن تكون المؤرخة الأميركية إليزابيث توميسن - التي درست في دمشق وتشتغل على التاريخ السوري الحديث - أول من كشفت عن دورها (بالاستناد إلى مصادرها) في كتابها «مواطنو المستعمرات» (1999) ثم في كتابها الصادر حديثاً «كيف سرق الغربُ الديمقراطية من العرب: المؤتمر السوري في 1920 وتدمير التحالف التاريخي الليبرالي- الإسلامي فيه» (2020)، الذي نأمل أن يصدر بترجمة عربية قريباً.

وُلدت نازك العابد في دمشق عام 1887 في أسرة صاعدة بقوة في التاريخ العثماني- السوري جاءت من الشمال (نواحي المعرّة) إلى جنوب دمشق (حيّ الميدان) حوالي عام 1700 لتعمل في تجارة الحبوب، فبرزَ مؤسّسها الحقيقي عمر أغا العابد في مطلع القرن التاسع عشر. وكان من أولاده محي الدين هولو باشا (1824-1895) الذي برز في الإدارة العثمانية الحديثة ليصبح عضواً ثم رئيساً لمجلس إدارة ولاية الشام. وقد برز من أولاده اثنان على المستوى العثماني- السوري: الأول أحمد عزت باشا العابد الذي ارتقى ليكون السكرتير الثاني للسلطان عبد الحميد، الذي أصبح ابنه محمد علي أول رئيس للجمهورية السورية (1932-1936)، والثاني مصطفى باشا العابد (والد نازك) الذي كان متصرّفاً على الكرك ثم على الموصل إلى أن عُزل السلطان عبد الحميد في 1909 وتعرّضت العائلة للنفي إلى غرب الأناضول (إزمير).

في هذه الظروف، ولدت نازك وحصلت على تعليم جيد وقد شغفت بتعلّم اللغات، واستفادت من وجود العائلة في إزمير لتلتحق بالمدرسة الأميركية هناك وتتعلم التصوير والرسم. ويبدو أنّ تطورات الحركة الوطنية في تركيا الجديدة بقيادة مصطفى كمال، التي برزت إلى جانبه الكاتبة والصحافية خالدة أديب، كانت نموذجاً ملهماً لنازك العابد، التي انخرطت بعد عودتها إلى دمشق فوراً في الحركة الوطنية التي تطالب بدولة عربية مستقلة في بلاد الشام وفي الحركة النسائية التي تطالب بحقوق المرأة.

كان هذا الزخم الجديد في بلاد الشام في ربيع 1919 نتيجة للمعركة الدبلوماسية التي قادها الأمير فيصل في مؤتمر الصلح وتعاطف معه الرئيس الأميركي وودرو ولسون الذي طالب بإرسال لجنة تحقيق دولية باسم مؤتمر الصلح للتحقق من رغبات السوريين بالاستقلال. وكانت لهذا القرار تداعياته، إذ دعا الأمير فيصل السوريين إلى انتخاب مؤتمر سوري يعبّر عن رغباتهم أولاً ويقوم بوضع دستور للدولة المنشودة.

وصلت هذه اللجنة (التي تحوّلت إلى أميركية بعدما رفضت فرنسا وبريطانيا تسمية ممثلين لهما في اللجنة) إلى فلسطين أولاً ومنها جالت في بلاد الشام لتستمع إلى وفد المؤتمر السوري في دمشق والوفود الشعبية الأخرى التي جاءت خصيصاً لإسماع صوتها. كان كلّ أعضاء هذه الوفود من الرجال، لكنّ المفاجأة كانت حين قادت نازك العابد وفداً نسائياً إلى مقرّ اللجنة حيث شفّت عن وجهها بجرأة لتنقل لأعضاء اللجنة صوت السوريات أيضاً، مما كان له صدى لدى اللجنة وفي المجتمع السوري المحافظ.

كانت نازك العابد تتّقد حماسة في هذه اللحظة التاريخية، وهو ما بدا في كتاباتها وفي مبادراتها الجمّة التي لم تزل تنتظر الكتابة عنها بالاعتماد على المصادر وليس بالإنشاء فقط. كانت ماري عجمي (1888-1965) الرائدة في الحركة النسائية السورية قد أصدرت مجلة «العروس» في حمص عام 1910، التي نشرت فيها العابد أول مقالاتها. لكن، مع إعلان الأمير فيصل تأسيس الحكومة العربية في دمشق عام 1918 بادرت نازك العابد في 14 مارس/آذار 1919 إلى تأسيس «جمعية نور الفيحاء» التي تعنى بتعليم البنات، ثم أصدرت جريدة شهرية نسائية في بداية 1920 باسم «نور الفيحاء». في غضون ذلك كانت العابد قد أسّست «مدرسة بنات الشهداء» بدعم من الأمير فيصل الذي خصّص لها أرضاً مناسبة في الصالحية، ولذلك، حين صدر العدد الأول من «مجلة نور الفيحاء» جاء في آخره أنّ «إدارة المجلة في مدرسة بنات الشهداء».

تستحق أعداد هذه المجلة دراسة جادة للتعرف على كتابات نازك العابد الوطنية والنسوية المطالبة معاً بالاستقلال وتحرير المرأة من الجهل والتخلف، وعلى ما كانت تنشره من مقالات مختارة بدقة لتساهم في ذلك، كما كانت المجلة تنشر مقالات لكتّاب وكاتبات، تساهم بدورها في هذه الرسالة الوطنية والتحررية للمرأة السورية. فقد كانت المجلة تُفتتح بركن «شهيرات النساء» لكي تنوّر المرأة السورية بأسماء كان لها دورها في التاريخ العربي والإسلامي والعالمي. وهكذا عندما اختارت لهذا الركن السيدة سكينة بنت الحسين، أبرزت أنها «كانت سيدة نساء عصرها ومن أجملهن وأظرفهن» و«أوفرهن ذكاء وعقلاً وأدباً، فالتفّ حولها الشعراء والأدباء وكان لها تأثير شديد في جميع أهل عصرها، حتى أنّها كانت تُخترع الأزياء، فهي واضعة الطرّة السكينية المعروفة باسمها بين النساء». وفي أعداد أخرى كانت تعرّف بـ«أول مراسلة حربية» و«أقوى امرأة في العالم» إلخ.

وفي ما يتعلق بدورها في نشر الروح الوطنية بين السوريات وربط التحرر من الحكم العثماني بالتحرّر من «الحشرات السامة من التقاليد والعادات»، فقد حرصت على نشر المقالات التي تفتح الأذهان كما في مقالتها «فتاة الوطن أين أنت؟» المنشورة في العدد الخامس للمجلة (مايو/أيار 1920)، التي تحضّ فيها بنات جنسها على انتهاز هذه الفرصة (الاستقلال) للتحرّر من التخلف الذي سيطر عليهن طويلاً.

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

جمعت بين الدفاع عن حقوق المرأة وهواجس الحركة الوطنية

نشأت في تركيا حيث تأثرت بصعود الحركة النسائية هناك

نازك العابد في بورتريه لـ لين عوض
(العربي الجديد)

صاحبة «نور الفيحاء»

تستحق نازك العابد أن تكون لها مكانتها في صفحات التاريخ السوري الحديث الذي لم يكتب بعد، ليس فقط تاريخ حركة المطالبة بحقوق المرأة، بل أيضاً ضمن التاريخ السياسي وتاريخ الصحافة، وهي التي بادرت بإصدار جريدة شهرية نسائية في بداية 1920 باسم «نور الفيحاء». وتفترض استعادتها اليوم العمل على جمع أعداد مجلّتها «نور الفيحاء» (الصورة: غلاف العدد الاول) وتوفيرها الكترونياً لخدمة الباحثين.

تصويب

امرأة دمشقية بزيّ عسكري

عاشت نازك العابد مرحلة «المملكة العربية السورية» ما بين 1918 و1920، وقد جعل منها الصراع ضد الاحتلال الفرنسي كتلة نشاط لا تهدأ. فقد أسّست بعد إعلان الاستقلال «جمعية النجمة الحمراء» (التي سبقت جمعية الهلال الأحمر) لكي تتولى العناية بالمصابين من الحرب.

ومع اقتراب القوات الفرنسية من دمشق، منحها الملك فيصل رتبة نقيب في الجيش فجالت في بدلتها العسكرية من دون حجاب في شوارع دمشق مع الجنود المتوجهين إلى ميسلون لتحضّ الدمشقيين على التطوّع والمشاركة في الدفاع عن الوطن، ثم لتذهب بنفسها إلى ميسلون باسم «جمعية النجمة الحمراء» للعناية بالمصابين في المعركة.

كانت نازك العابد مصابة في روحها بعد المعركة وسقوط «المملكة العربية السورية» وتقدّم جيل مخضرم من الساسة السوريين للتعاون فوراً مع سلطة الانتداب الفرنسي الذي جاء باسم «عصبة الأمم» ليغطي على تنفيذ معاهدة سايكس- بيكو المعدلة في 1919، ومنهم ابن عمها محمد علي العابد الذي شغل منصب وزير المالية ما بين 1922 و1925 بعد فارس الخوري.

وكانت العابد قد أسّست أيضاً «جمعية نور الفيحاء» التي تعنى بتعليم البنات و«مدرسة بنات الشهداء»، ثم أصدرت جريدة شهرية نسائية في بداية 1920 باسم «نور الفيحاء».

محمد...

إطلالة

في الأقصى مع أم صبحي

باسم النبريص

زرت المسجد الأقصى مع أم صبحي. ففي مثل ظروفنا، لا بدّ لك من رفقة امرأة كي تكون في مأمن من عيون الشرطة. حين وصلنا مدخل المسجد، أفهمتني أم صبحي بضرورة التقيد ببعض التعليمات:

1 - عدم النظر ناحية الحاجز.

2 - التصرّف بطبيعية حين تقترب منهم.

3 - إذا وقعت الفأس في الراس وسألوك إبراز بطاقة هويتك، فتشاغل بالبحث عنها في جيوبك، وحين لا تجدها، قل لهم نسيتها في الدار.

4 - التكلم بلهجة مقدسية، فالويل لك إن عرفوا أنّك غزاوي.

وعليه، فأقصى ما يستطيعون فعله، في هذه الحال، هو عدم السماح لك بدخول ساحة الحرم.

وقد نفّذت تعليمات أم صبحي بحذافيرها، ونفذت بجلدي، فكسبت التسوق بأمان، وكسبت الزيارة المشتهاة.

فصدق من قائل: لا يأتي بها غير نسائها!

وتركت المرأة تدخل لتصلي مع النساء، بعد اتفاقي معها على الانتظار عند ساحة باب الناظر، حتى نعود معاً.

نزلت الدرجات المؤدية إلى المسجد الأقصى، متباطئاً مستمتعاً، وتجولت في أرجائه، أتأمّل سقفه وأعمدته ومنبره، حيث وقف هنا ذات يوم القائد صلاح الدين. أدهشني صغر مساحة المسجد، بمقرنصاته ونقوشه، وتواضع حجمه. وقفت بجوار المنبر، وهناك سألني أحد الحراس إذا كنت تركياً؟ قلت: من غزة، فأفاض في المديح والدعاء «للمحاصرين المرابطين».

ذكّرني الرجل بالزيارة القديمة جداً للمسجد، قبل ربع قرن، حين سألني أيضاً أحد الحراس إن كنت إسبانياً؟ ما الخطب! ألا أشبه العرب!

ألفّ وأدور، ثم أنزل درجات عدة فأدخل الأقصى القديم في الأسفل. لا أمكث طويلاً، فما هو إلا رواق صخري طويل، لا يحوي شيئاً. وأخرج لأتجوّل في الباحات الواسعة للحرم، فأرى وأتنشّق أريج شجر السرو العتيق والأرضية الصخرية الملساء، وقد غمرهما نور ما بعد صلاة الظهر، السابغ، نور برتقالي على أصفر، أشد بريقاً من لون الذهب.

«يا الله» ما أشهى الهواء هنا وما أعذب النور!

ثمة مجموعات من الشرطة الإسرائيلية تجول في المنطقة، ببزّاتهم الزرقاء، وعصيّهم الغليظة وأسلحتهم، ومن يشتبهون به يأخذونه. أدخل المسجد لأبحث عن أم صبحي، فأخجل من البحث عنها وسط آلاف النساء. أقول لا بأس، فهي تعرف طريق العودة جيداً، ولا خطر عليها بصفتها امرأة. أجول تحت القبة، أنزل درجات قليلة، وفي الكهف، حيث الصخرة التي يقال إنّ النبي محمداً أسرى منها إلى السماء، أرى رجلاً أوروبياً يصلي بخشوع، وحوله زوجان شابان يصليان ويلمسان النتوء الصخري الضخم، على سبيل التبرك. القبة من الداخل تحفة معمارية لا أروع، وكانت أثناء الزيارة، في طور ترميم جديد، حيث السقالات مرفوعة، وبعض المصلين من الفتيان يصعدونها كنوع من اللعب المرح. أرى أيضاً عشرات النساء القادمات من مدن وقرى الضفة بتصريح. فحتى فلاحات بيت لحم، جارة القدس الأقرب، يحتجن إلى تصريح، كي يبعن فواكههن وخضارهن في القدس. يُؤذَنُ للعصر، فأشعر بالجوع، وأخرج. أما أم صبحي، فأكيد أنّها الآن منسجمة في الحديث مع امرأة مقدسية، والأغلب أنّها نسيتني.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا، والنصّ من يومياته في القدس المحتلة عام 2009)

مصائر الحركة النسوية فوق أرضية مهتزّة

الوجه العاري للثقافة العربية

كثيراً ما يجري ربط إشكاليات تأصيل الفكر النسوي عربياً برواسب المعتقدات الدينية والشعبية، لكنّ البنية الثقافية ذاتها لا تخلو من أسباب إجهاضه

سلوى روضة شقير، نحت وتنصيب 16 × 16 × 16 سم

شوقي بن حسن

حين رحلت الكاتبة المصرية نوال السعداوي (1931 - 2021) في مارس/ آذار الماضي، كانت الاستعادات الرصينة لمنجزها قليلة للغاية. صحيح أنّها باتت تُنسب بشكل بديهي (ربما روتيني) إلى الحركة النسوية لكنّ من النادر أن يُستعاد الجانب الفكري منها إذ لم تكن تُقدّم (وكذلك تقدّم نفسها) إلى الجمهور الواسع إلاّ عبر سجالاتها، وهل للسجالات أن تكون مدخلاً فكرياً جيداً لوصول أطروحات الفكر النسوي إلى أوسع مدى؟

لقد كان رحيل صاحبة «الوجه العاري للمرأة العربية» مناسبة كي نقف على ما يحدث مع الفكر النسوي إذا ما اقتحم تلك الحدود المرسومة من السُّلط الدينية والسياسية والاجتماعية. انشغلت مواقع التواصل الاجتماعي لأيام بسجالات معظمها تقييمات - معادية أو ممجّدة - لا تعود إلى النصوص ولا تُسند أي رأي ببرهان، ناهيك عن موجة التكفير والتكهّن بمصيرها يوم الحساب. حين نرى ذلك العنف نفهم بعض الراديكالية التي اتسمت بها أعمال نوال السعداوي، وقد ننسى أحياناً أنّ الأمر لا يعدو أن يكون راديكالية مضادة للراديكالية المحافظة، وما الثقافة العربية من هذه الزاوية إلاّ دائرة مغلقة من الفعل وردّ الفعل تُهدرُ كلّ إمكانية للبناء.

ولنا أن ننظر في حال الكتابة النسوية العربية على مدى عقود، فهل تأصّلت مقولاتها ومفاهيمها ونظرياتها بحيث تتمظهر في الفكر والأدب والفنون ومقرّرات الدراسة وسلوكيات الحياة اليومية؟ وهل أن نجاح الفكر النسوي يقتصر على أن تكون النساء كاتبات ومفكّرات وفنانات؟ أليس أولى من ذلك أن تتغيّر قواعد اللعبة الاجتماعية والثقافية بما يخلق مناخاً يحمي المرأة من النظام البطريركي، وحتى من تعصّب الفكر المضاد له؟ في ثقافتنا العربية، نرى طريقاً مقطوعاً أمام كلّ تأصيل لفكر نسوي رصين، ولا نجد أيّ أثر للتراكم المعرفي ضمن هذا الحقل الفكري. فلا نجد اليوم من الباحثات والمؤلّفات من يمكننا القول إنّها تواصل مشروع نوال السعداوي أو غيرها من معاصراتها. على أقصى تقدير، ثمة من يواصلن نفس المعارك لا المشروع نفسه. ومن الوجيه أن نتبيّن أنّ نوال السعداوي ومعاصراتها لم يكنّ أيضاً مواصلات للمشاريع النسوية الأولى في غير بلد عربي (نبوية موسى، نازك العابد، بشيرة بن مراد...) والذي كان مندمجاً في الرؤية الوطنية الجامعة.

هكذا يُهدرُ الضجيجُ والمعارك الجانبية في كل مرة فرصة تسلّم مشعل من جيل إلى آخر. ليس الفكر النسوي إلاّ نموذجاً لحالة عربية معمّمة، إذ يضيع معظم ما هو رصين في الجلبة والغبار وتُقطع الطريق أمام كلّ مشروع. وما لم تنشغل النُّخَبُ بفهم هذه الدوّامات وتبدأ في تغيير أنفسها، فإنّ مناسبات كثيرة تعزّي الوجوه الكريهة للثقافة العربية.

فعاليات

حتى الثامن من أغسطس/ آب المقبل، يتواصل في «متحف بيرغروين» ببرلين معرض **نساء الجزائر** الذي يفتتح الجمعة المقبل ويضمّ سلسلة أعمال الفنان الإسباني **بابلو بيكاسو** (1881-1973). تضمّ السلسلة خمس عشرة لوحة زيتية وأكثر من مائة رسم من التخطيطات التي سعى من خلال إلى هدم المنظور الإكزوتيكي للشرق.

ينظّم **نادي الكتاب العربي** في «متحف الفن الإسلامي» بالدوحة عند الواحدة والنصف من بعد ظهر بعد غد الأربعاء لقاءً افتراضياً لمناقشة كتاب **موسوعة التاريخ الإسلامي: من قبل ظهور الإسلام وحتى سقوط الخلافة العثمانية** للباحث **مصطفى بدر**. يتناول الكتاب السياقات الاجتماعية والسياسية التي سبقت الدعوة المحمدية وآليات الحكم وإدارة المجتمع في ثلاثة عشر قرناً.

تنطلق عند التاسعة من مساء بعد غدٍ الأربعاء فعاليات الدورة الخامسة من **مهرجان ليالي الصالحية** الذي يتواصل لثلاثة أيام بتنظيم من «المركز الوطني للاتصال الثقافي» في تونس العاصمة. يتضمّن المهرجان حفلا لفن السطمبالي بقيادة الفنان **رياض الزاوش**، وعرض «طروق» (الصورة) للفنان **إبراهيم بهلوك**.

يتواصل حتى الخميس المقبل في «قصر الامير طاز» بالقاهرة معرض **مساجد القاهرة الخديوية** الذي انطلق مساء الخميس الماضي. يشتمل المعرض على صور توثّق ما بُني من مساجد خلال عهد أسرة محمد علي باشا بين عامي 1805 و1952 في العاصمة المصرية، ومنها مسجد الرفاعي، وجامع فاضل باشا، ومسجد القائد إبراهيم.